عندما تفرض الشعوب إرادتها تنهار الدكتاتوريات وتزول الوصايات الغربية

خالد عبد السلام – علم النفس وعلوم التربية والأرطفونيا – سطيف - الجزائر
absalam05@yahoo.fr

لم يتوقع أحد من الخبراء في مراكز الدراسات المتخصصة والاستخبارات العالمية والدارسين من علماء الاجتماع السياسي أن تحدث مثل هذه التحولات والتغيرات بمثل هذه السرعة لأنظمة سياسية تمادت في الاستبداد والطغيان ضد شعوبها حتى أصبحت وكأنها قدرا محتوما وأبديا. حتى أعطت انطباعا بجبروتها ونظامها القمعي للشعوب بأنها غير قابلة للزلازل والاهتزازات بأي شكل من الأشكال خاصة وأنها تلقى الرعاية والعناية والدعم المطلق من دول غربية تضمن لها الوجود وتمنع عنها المتابعة وتعطي لها أوسمة الاعتدال وحب السلام. بل أكثر من ذلك عملت الدول الغربية حفاظا على مصالحها وتمكينا لنفوذها وهيمنتها واستنزافا لثرواتنا وإذلال لكرامتنا من خلال وسائل إعلامها وسياساتها الدبلوماسية على تسويق منطق الأنظمة المستبدة الذي يشوه ويتهم كل حركات التحرر في المجتمعات العربية والإسلامية بالإرهاب والعنف والكراهية وغيرها من الأوصاف المشينة تماشيا مع توجهات النظام العالمي الجديد المبنية على فلسفة فوكوياما (نهاية التاريخ) وهينتكتن (صدام الحضارات) التي بدأت مؤشراتها في الثمانينيات من القرن الماضي بعد سقوط المعسكر الشرقي الشيوعي، و انطلقت شرارتها بحدة وشراسة منذ أحداث 11 سبتمبر 2001، لتتخذ سياسة منظمة تجسدت عن طريق حملات التشويه والتشهير والتخويف من كل ما له علاقة بالإسلام و المسلمين كدين وثقافة وحركات مجتمعية، لتتطور إلى شن حروب عسكرية في العراق وأفغانستان ولبنان وغزّة، ثم جاءت على شكل عمليات إثارة النعرات العرقية(عرب وفرس وترك) والدينية(المسلمين والمسيحيين) والمذهبية (الشيعة والسنة) و بعدها تجسدت على شكل مخططات سايكس بيكو جديدة لتفتيت الدول إلى دويلات كالسودان وفلسطين ومستقبلا قد يكون اليمن وباكستان أو دول شمال إفريقيا أو غيرها. من خلال تدعيم الحركات الانفصالية، وذلك لمنع كل الأصوات المعارضة والمناوئة للهيمنة الأمريكية الصهيونية والغربية. أي أنها دول تعبث بمصيرنا ومستقبلنا كما تشاء وبتعاون وتواطؤ أنظمة صنعتها بطريقتها وأعطت لها الولاء المطلق.

حتى أننا نسمع ونقرأ من محللين سياسيين وخبراء غربيين في تنظيرهم للسياسات الدولية ينطلقون من مسلمة أن الشعوب العربية والإسلامية شعوبا متخلفة وغير واعية ولها قيم ثقافية تحرض على العنف والإرهاب، ولها القابلية للذل والهوان ومغلوبة على أمرها ليست ناضجة وغير مهيئة لا ثقافيا و لا نفسيا، ولا لها القابلية للتسيير بالقواعد الديمقراطية تجسيدا لمنطق الوصاية علينا، وتبريرا لسياسات الاستبداد الممارسة من قبل الأنظمة القائمة.

لكن الظاهرة الجديدة في التغيير التي تأرخت منذ جانفي 2011 من خلال تحرك الشعبين التونسي والشعب المصري سلميا لفرض إرادة التغيير وإسقاط أنظمة من أعتى الديكتاتوريا في العالم، وقد تصل عدواه إلى شعوبا أخرى في المنطقة العربية والاسلامية، جعلت هذه الدول الغربية كلها تتفاجأ لمستوى الوعي السياسي المدني السلمي الذي كان كامنا لدى هذه الشعوب والذي يدحض كل المسلمات والأفكار المسبقة التي كونتها حول مجتمعاتنا وثقافتنا وقيمنا. وقد ساهم في نشوء هذا الوعي والإرادة تكنولوجية الاتصال الحديثة (الأنترنيت والهاتف النقال) الذي جعلت من العالم غرفة صغيرة إلى جانب دور الإعلام العربي الحر النزيه والمهني الذي تصدرته قناة الجزيرة من خلال بلورتها لتصورات وقناعات وإعادة تشكيل الوعي العربي ليؤمن بالحرية والكرامة ويتبنى قضاياه المصيرية بنفسه.

فها هو تاريخ المنطقة العربية والإسلامية يُصنع من جديد بيد الشعوب نفسها وبطريقتها الخاصة وبعفويتها وفق طموحاتها وآمالها كما صنعت استقلالها من قبل. وفي نفس الوقت نجد أن الظاهرة الجديدة تؤسس لنظريات جديدة في علم الاجتماع السياسي في التغيير الاجتماعي والسياسي، لتنهار بذلك كل نظريات الكلاسيكية المبنية على الانقلابات العسكرية والمؤامرة و التخطيط الخارجي، و يولّى العهد الذي تصنع فيه الدول الغربية أنظمة بطريقتها وحسب معاييرها التي تناسب مصالحها.

و نستخلصه من هذه الثورات الشعبية السليمة التي أسقطت الديكتاتوريات بهذه السرعة كدروس للمستقبل:

1- أن مصير و مستقبل الشعوب في العيش بالعزة والكرامة تصنعه بأيديها وبإرادتها. أما الوصاية الخارجية والإستقواء به ليست قدرا محتوما على الشعوب.

2 - أن هاجس الخوف من التحرك والتعبير بصراحة وقوة في وجه كل أشكال الاستبداد والرغبة في العيش بكرامة الذي زرع في شعوبنا منذ عقود من الزمن قد تكسر، بل ازدادت الشعوب ثقة بنفسها.

3- أن إرادة الشعوب عندما تتحرك كالسيل الجارف لا تستطيع إرادة الأنظمة القائمة ولا القوة الخارجية المؤيدة لها أن تقهرها ولا تكسيرها. لأن الوعي الجماعي وروح الجماعة يشكلان الدرع الحصين من كل أشكال الحروب النفسية التي تمارس ضد الشعوب لإفشال مساعيها.

4- أن نظريات التغيير بالقوة أو العمل المسلح والانقلابات العسكرية أو الأعمال الإرهابية قد سقطت وانهارت جذريا، وهو ما يزيل عن الأنظمة المستبدة ورقة التخويف والتهويل من الإرهاب، ومن الدول الغربية ورقة مساندة الأنظمة لمكافحة الإرهاب ظاهريا وتدعيمه سريا لتبرير سياسات الأنظمة المستبدة وسياساتها التوسعية.

5- أن تكنولوجية المعلوماتية والاتصال المعاصرة المتاحة للشعوب أقوى بكثير من منظومات الاستبداد كلها الأمنية والإستخباراتية. حيث تشكل الوعي السياسي والضمير الجمعي بسرعة فائقة، لا يمكن التحكم فيها أو التشويش عليها.

6- أن أضعف وأهون نظام عرفته البشرية عبر التاريخ هو النظام الديكتاتوري، لأنه مبني على قواعد اللاّ ثقة والخوف والظلم، التي تجعله نسقا هشا وقابلا للانهيار والسقوط لأبسط هزة اجتماعية.

7- أن أي شخص يرغب في الحكم مستقبلا ويرغب في الحصانة أو ويريد أن يخلد اسمه ضمن سجل بطولات وملاحم أمته عليه أن يكسب شرعيته من إرادة شعبه ويتحالف مع مصالحه ويحصن نفسه بشعبه لا أن يستقوى على شعبه بالغرب. نموذج أردوجان في تركيا وتشافيز في فينزويلا.

8 - أن الدول الغربية تعامل بازدواجية ونفاق سياسي مفضوح وفق مبدأ(ما تغضب الذّيب وما تبكّي الراعي) مع الشعوب، فتصرح بلغة إنسانية وديمقراطية في الظاهر وتتعامل بمنطق التآمر ضد إرادة الشعوب من خلال التخطيط وتوفير الخبراء والوسائل القمعية لإجهاض كل إرادة شعبية، ولا يهمها في ذلك إلا مصالحها ونفوذها. وهو ما رأيناه في تعامل الغرب مع الثورتين التونسية والمصرية من خلال التردد والتأرجح بين موقف وآخر يضاف إلى ذلك ملامح الوجه ونبرة الصوت اللتان تكشفان حقيقتهم بالمقارنة مع تعاملهم مع ثورات أخرى وهمية حاولوا صنعها لإسقاط أنظمة مناوئة لها مثل إيران.

9- أن الدول الغربية لا تعترف ولا تحترم الحكام المستبدين إلا بالقدر الذي توظفهم كعملاء ينفذون لهم مشاريعهم ومخططاتهم ويحفظون مصالحهم. بل تتخلى عنهم في أي لحظة ترى أن وظيفتهم قد انتهت(مثل مصير صدام حسين شاه إيران، زين العابدين بن علي وغيرهم لاحقا.

10 - أن أنظمة الحكم العربية المستبدة بتدعيم من الغرب يخوّفان مجتمعات وشعوب العالم من المعارضين سواء كانوا إسلاميين أو يساريين تبريرا لوجودهم وازدياد بطشهم وسيطرتهم. فهم أثبتوا فعلا أنهم فاسدون وعملاء ولا يصلحون لخدمة شعوبهم بل لا يستطيعون ذلك. بما أنه تأكد للجميع من خلال الثروات التي اكتنزوها وامتلكوها أنهم خدموا أنفسهم وعائلاتهم وأقاربهم وحاشيتهم فقط وأفقروا شعوبها مبررين ذلك بالأزمات الاقتصادية وضعف المداخيل وغيرها. أما التيارات الأخرى لم تحكم بعد لنستطيع إصدار أحكام عليها بالصلاح أو عدم الصلاح.

11- أن الدول الغربية كلها ساهمت بكل ما أوتيت من قوة و إمكانيات وخطط في إبقائنا في دائرة الفقر والتخلف وتحت سلطة الظلم والاستبداد والتبعية المطلقة له علميا وتكنولوجيا و اقتصاديا وسياسيا من خلال تحالفها مع العصابات والمافيا الأنظمة العربية المسيطرة على كل شؤون الاقتصاد والمال والتجارة. لذلك من واجب شعوبنا محاسبتها مستقبلا هي الأخرى.

12- أن الغرب إذا أراد مستقبلا أن تصان مصالحه عليه أن يصون مصالح وكرامة الشعوب الأخرى ويحترم اختياراتها وقراراتها وسيادتها ويتجنب ثقافة التكبر والاستعلاء مع احترامه للتنوع الثقافي والحضاري.

13- أنه لا يوجد من يستطيع مستقبلا أن ينصب نفسه كوصي ليسمح لهذا ويمنع ذاك من المشاركة في التسيير السياسي في أي مجتمع من المجتمعات. فلا تقبل مستقبلا أن تلعب الدول الغربية أدوارا في التحريض ضد مكونات المجتمع و تنظيم انقلابات وتنصيب حكاما رغما عن إرادة شعوبها، فهذا الزمان قد ولى بظهور وعي و إبداعات شعبية جديدة في فرض التغيير بالطرق السلمية والحضارية.

14- أن الانتهازيين والوصوليين والمصلحيين والأنانيين من المطبلين المبررين لسياسات للأنظمة الفاسدة في كل المجتمعات سيحكم عليها التاريخ و الثورات الاجتماعية والشعبية بالإعدام السياسي.

15 - أن القمع والظلم مهما عاش واستمر وتمادى فإنه يخضع لقاعدة فيزيائية التي تقول أنه كلما تأجل رد الفعل بالانفجار كلما غذّاه وشحّنه أكثر ليتحول إلى بركان جارف يحطم كل شيء.

16 - أن قوة أي نظام في قوة ثقة شعبه فيه التي يكسبها من خلال التفاني في خدمته وترسيخ قيم الحرية العدالة والمساواة وسيادة القانون ومحاربة كل أشكال الفساد والظلم مع إعطائه فرص التعبير والمشاركة في اتخاذ القرارات.

17- أن جيل الشباب المتعلم والمعاصر لتكنولوجية الاتصال والمعلوماتية قد فرض نفسه و أكد قدرته على صناعة المستقبل بنفسه، لذا فاهتماماته وطموحاته وآماله لا يمكن أن يفهمها أو يخدمها بالشكل المطلوب مسؤولين لأنظمة لهم تفكير لا يؤمن بالآخر ولا يولي الاعتبار للناشئة بقدر ما يستهزئ به (الشباب)، ويصفونهم بأقبح الوصاف ويعاملونهم بعقلية الأبوة والوصاية عليه ويستصغرونه في كل شيء وخاصة في عدم القدرة على تحمل المسؤولية. وهو ما يفرض منطق تسليم مشعل التسيير الإداري والمؤسساتي لجيل الشباب حسب معيار الكفاءة لضمان التواصل بين الأجيال و تجنبا لتفاقم الفجوة بينهما.

18- أن هذه التحولات المتسارعة قد تكون مؤشرا لولادة شرق أوسط جديد يُعاد فيه رسم التوازنات الإستراتيجية من جديد لفائدة مصالح العالم العربي والإسلامي، وتكون لنا الكلمة بين الأمم بحيث يوضع لنا الحساب ويطلب منا الموقف والقرار بعدما كان يقرر مصيرنا ومستقبلنا نيابة عنا من قبل الدول الاستعمارية الكبرى. كما يؤشر إلى ولادة نظام دولي متعدد الأقطاب نتمنى ذلك.

ePsydict C – Complete Edition (CD)
Arabic English French - French English Arabic - English Arabic French

تنزيل النسخة التقييمية من الإصدار الكامل
www.arabpsynet.com/HomePage/ePsyCs.exe

ePsydict EF – English - French Edition (CD)
English French - English French

تنزيل النسخة التقييمية من الإصدار الإنكليزي الفرنسي
www.arabpsynet.com/HomePage/ePsyEFs.exe